أمـــــراض العقول وعلاجهـا
من منـظور إسلامي

أ.م.د.مراد عبد الله برع الجنابي
جامعة العلوم التطبيقية – مملكة البحرين

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى اله وصحبه وسلم .
أما بعد :
فالعقل مفطور على التمييز بين الأشياء وإطلاق الأحكام عليها ، ولا يوصف بخير أو شر إلا من خلال عمله ، فهو في الحقيقة آلة خالية من الأغراض ومهمته العلم بصفات الأشياء من حسن وقبح ، وكمال ونقصان ، والعلم بخير الخيرين وشر الشرين ليمايز بينهما [١] ، ويرتب النتائج على المقدمات ويقايس بين المتشابهات والأمثال ، ومن خاصيته التمييز بين مراتب المحبوبات والمكروهات بقوة العلم والتمييز ، وإيثار أعلى المحبوبين على أدناهما واحتمال أخف الشرين للتخلص من أعلاهما ، لأن النفس لا تترك محبوباً إلا لمحبوب ، ولا تتحمل مكروهاً إلا لنيل محبوب ، أو للتخلص من مكروه أشد [٢] ،(فبحسبه أن يواجه الأحوال المتطورة والظروف المتغيرة والحاجات المتجددة ، ثم يوائم بينهما وبين الناس في لحظة عابرة وظروف موقوتة). [٣]
وقد وضع الله سبحانه في العقول والفطر استحسان الصدق ، والعدل والإحسان ، والبر ، والعفة ، والشجاعة ، ومكارم الأخلاق وأداء الأمانات وصلة الأرحام ، ونصيحة الخلق ، والوفاء بالعهد ، وحفظ الجوار ونصر المظلوم ، والإعانة على نوائب الحق ، وقرى الضيف ، وحمل الكل ، ونحو ذلك .
ووضع في العقول والفطر استقباح أضداد ذلك ونسبة هذا الاستحسان والاستقباح إلى العقول والفطر كنسبة استحسان شرب الماء البارد عند الظمأ ، وأكل الطعام اللذيذ النافع عند الجوع ، ولبس ما يدفئه عند البرد ، فكما لا يمكنه أن يدفع عن نفسه وطبعه استحسان ذلك ونفعه فكذلك لا يدفع عن نفسه وفطرته استحسان صفات الكمال ونفعها ، واستقباح أضدادها [٤]
فهذه الأقوال وغيرها تُثبت أن للأشياء حسناً وقبحاً ذاتيين ، ولكن هذا الحسن وهذا القبح لا تعلق له بالثواب والعقاب . [٥]
ولأهمية العقل ومكانته تناول القرآن الكريم العقل في موضوعات يتجدد فيها الاعتبار والاتعاظ ، لغرض دفع النفس الإنسانية إلى التأمل والتصور والتخيل ومن صور ذلك علاقة العقل بمظاهر الطبيعة وما فيها من دلائل القدرة في النبات والبحار وخلق الإنسان وأطوار نشأته تلك الأطوار التي تدل على يد خفية وراءها تشير بوضوح تام إلى الخالق
واقتضت خطة البحث تقسيمها على مقدمة وثلاثة مباحث ، بينت في المقدمة أهمية الموضوع وحددت مشكلته وسبب اختياري له ، وجعلت المبحث الأول لمعنى العقل حيث أوضحت فيه معنى العقل لغة واصطلاحاً ومكانته في القرآن والسنة والمبحث الثاني لاهتمام القرآن الكريم بالعقل وتكريمه بتسعة مطالب أوضحت فيها رعاية القرآن الكريم للعقل الإنساني وعلاجه من أمراض الجهل والتخلف وبيان صلته بالشريعة واللغة والحواس والامثال والقصص وغيرها ، أما المبحث الثالث فقد جعلته لأمراض العقل وسبل علاجها وذلك من خلال أنوار وأسرار القرآن الكريم وطريقته المباركة لعلاج تلك الأمراض والعلل التي أدت إلى ضياع المؤمنين وهدم حضارة الإسلام والمسلمين وهم يواجهون أشرس وأعتى الهجمات الفكرية المعادية لشريعتهم الغراء وحضارتهم السامية وخاتمة ذكرت فيها أهم النتائج والتوصيات .
ربنا جل جلالك وعم نوالك عندك مفاتيح كل خير ومكرمة ومغانم كل عفو ومغفرة ، أنت الغني وكلنا فقراء في درب الحياة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى أله وأصحابه أجمعين .

المبحث الأول : معنى العقل ومحله :

لقد شرف الباري سبحانه الإنسان وكرمه فكان من أعظم ما شرفه به وكرمه العقل ، فالحقه بسببه بالملأ الأعلى ، وبه تأهل لمعرفة الله تعالى بارئه ومبدعه فاستدل بما حوله ، وبما علمه على وجود الله الخالق المريد العليم ، وسنبين في هذا المبحث معنى العقل في اللغة والاصطلاح والعقل في القرآن الكريم والسنة المطهرة وذلك في ثلاثة مطالب .

المطلب الأول : العقل في اللغة

أصل العقل في اللغة الحبس ، والعقل يحبس صاحبه عن ذميم القول والفعل وهو الذي يميز الإنسان عن الحيوان والعقل ضد الجهل وحسن الفهم ، والتثبت في الأمور ، والحفظ .
والعاقل : الجامع لأمره ولرأيه والذي يحبس نفسه ويردها عن هواها ، والمدرك للأمور ، والفاهم والحكيم .
والمعقول : ما تعقله بقلبك ، والمعقول العقل ، يقال : ما له معقول أي عقل ، والعقل له معان تقاربه : الحجى ، واللب ، والحجر ، والنهى.(٦)

المطلب الثاني : العقل في الاصطلاح .

اختلف أهل العلم في تعريف العقل وفي صفته اختلافاً شديداً ، ومبنى هذا الخلاف متعلق بزاوية النظر والاعتبار .
فمن لاحظ في نظره الجسمية وعدم الجسمية قال : العقل هو الجوهر المجرد عن المادة في ذاته وفعله .
ومن لاحظ ما يصدر عنه من معلومات أولية دون تعليم قال : العقل هو القوة الغريزية في الإنسان التي يدرك بها .
ومن كان ملاحظته للعقل قال : العقل ضرب من العلوم الضرورية ومن هنا وجدت عدة تسميات للعقل وتعريفات .
فالعقل : جوهر مجرد يدرك الغائبات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدة .
والعقل الهيولاني : هو الاستعداد المحض لإدراك المعقولات وهي قوة محضة خالية من الفعل كما للأطفال .(٧)
والعقل بالملكة : هو العلم بالضروريات واستعداد النفس بذلك لاكتساب النظريات .
والعقل بالفعل : وهو أن تصير النظريات مخزونة عند قوة العاقلة بتكرار الاكتساب ، بحيث تصبح ملكة يستحضرها متى شاء من غير تجشم كسب .

والعقل المستفاد : وهو حضور النظريات بحيث لا تغيب .

والعقل من طرف آخر موهوب ومكسوب :

فالموهوب : غريزة خلقها الله تعالى في الممتحنين من عباده ، يعرف بآثاره ولا يعرف كنهه إلا أرباب البصائر بتعليم الله إياهم أقام به الحجة على الخلق ، ووعد وتوعد ، وأمر ونهى ، وحض وكره لاستعداده للعلم والفهم ، وهذا العقل تفاوت فيه الخلق .
والمكسوب : هو نتيجة العقل الموهوب وهو نهاية المعرفة وصحة السياسة وإصابة الفكرة وليس له حد يعرف ، فينقص إن أهمل وينمو ويزداد بكثرة الإستعمال ، وهذا ما نجده عند الشيوخ من الحنكة والحكمة وصحة الرؤية وحسن التأني وحسبان العواقب وذلك لكثرة التجارب .وممارسة الأمور ، ولذلك حمدت آراء الشيوخ لاكتمال عقولهم بالتجارب وتبصرهم بالعواقب : فإنما يصدرون عن آراء لم تعارضها الأهواء ، فلئن فقدوا ذكاء الطبع ، فقد مرت عليهم وجوه العبر وبلغتهم آثار غيرهم وكفى بالتجارب تأديبا وبتقلب الأيام عظة .
فإذا توافر العقل الغريزي إلى فرض ذكاء وحسن فطنة وجودة حس فقد فاق تجارب الشيوخ نمواً ، وهذا ما يلاحظ من وفور العقل في بعض الأحداث وجودة الرأي ، وحسن البديهة ، مما يدل على أنه ليس للذكاء غاية ولا لجودة القريحة نهاية .

وكل موضع ذم الله تعالى فيه الكفار بعدم العقل فإشارة إلى عقل القلب وكل موضع رفع التكليف عن العبد فيه فإشارة إلى العقل الموهوب.(٨)

المطلب الثالث : محل القلب

اختلف العلماء في محل العقل ومكانه من جسم الإنسان ، فقد قال علماء النفس محله الدماغ ، لأنه محل الحس ، وقال المتكلمون وعلماء التربية الروحية : محله القلب ، لأنه معدن الحياة ومادة الحواس ، ومن هنا جاء تعريف بعضهم للعقل : جوهر روحاني خلقه الله متعلقاً بالبدن ، وهو نور في القلب تعقل به حقائق الأشياء (٩) .

وقال الدكتور الشيخ عبدو الحريري رحمه الله تعالى : (ومن خلال استقرائي لآيات العقل والنفس والروح والقلب تبين لي أن للإنسان عقلين) :

الأول : محله الدماغ وهذا الذي يشرحه علماء النفس حديثاً وما يتعلق به من ذاكرة وخيال ووهم وغير ذلك .

والثاني : محله القلب وهو المخاطب الحقيقي وقد تناولته الآيات القرآنية ، وهذا العقل هو المؤهل لمعرفة الله تعالى ، لكنه لا يعمل إلا بالتقوى والمجاهدة وكثرة الذكر ، وله نوع صلة بعقل الدماغ وقد بحثناه في قوى القلب).(١٠)

وفصل القول الشيخ الدكتور عبد الله مصطفى الهرشمي رحمه الله تعالى بقوله : [وفي هذا المقام ذهب الأسلاف الكرام علماء الإسلام مذهبين في مستقر العقل ، فمن علماء الحديث المجتهدين من ذهب إلى أن العقل في الدماغ كالإمام أبي حنيفة – رضي الله عنه – ومنهم من ذهب إلى أن العقل في القلب لا في الرأس محتجين بحديث النبي ﷺ : ((ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب(١١) ، ومن قوله تعالى ((**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا**)) ، وقوله سبحانه : ((**فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**...)) . وهذا هو ما ذهب إليه علماء الشافعية ومنهم الإمام النووي ، الذي ذكر المنحيين في الموضع الذي أسلفنا الإشارة إليه في شرحه لصحيح الإمام مسلم . أما المتكلمون فجمهورهم في هذا على اختيار القلب : وفيهم من اختار الرأس وفاقاً لأبي حنيفة والأطباء].(١٢)

وإنا بفضل الله وحسن توفيقه ذاهبون في هذه المسألة مذهباً موحداً بين المذهبين السالفين ، فنقول بأن الحق والصدق هو ما وضحه رسول الله ﷺ : من أن القلب بروحانيه المصرح به في النص وجسمانيه الملمح إليه فيه هو مرجع الصلاح والفساد في جسد الإنسان كله ، وإذ ليس بعد مقال الرسول من حكم إلا ما يوافقه أفلا ترى إلى القلب متى فسد فسدت أعضاء الجسم فارتكب المفاسد والمحرمات وبأن المذهبين السالفين كلاهما راجع إلى الصحة وموافقة النص دونما تعارض بينهما إذا دققنا المسألة على مزيد علم وتحقيق .

وهكذا يصح قول القائل بأن العقل في الرأس ، كما يصح قول القائل بأنه في القلب : الأول باعتبار المظهر المحسوس به ،والثاني باعتبار المكمن المؤثر ، ومثل الفريقين كمثل اثنين يدخلان غرفة مضاءة بمصباح كهربائي وأحدهما يفقد ثقافة الكهرباء والآخر يجيدها : فأولهما يعزوا الإضاءة إلى المصباح ، والثاني إلى تيارالكهرباء عبرالأسلاك وكلاهما مصيب عند ذلك.

والقول بوجود العقل وبأن إدراكاته موصولة بصحيح النظر الى العلم والمعرفة هو قول العقلاء عامة وفلاسفة الإسلام خاصة.

والمعارض في ذلك فريقان :الفريق الأول : يعترف بوجود العقل ولكنه ينكر معارفه العقلية وحقائقه العلمية ولايقيم وزناً لإدراكاته وهم طائفة من فلاسفة اليونان القدامى (السفسطائيون) أصحاب العقول ممن أصيبوا بخلط وضلال عجيبين غريبين ، فكثرت عندهم الأغاليط وكثر الاختلاف فيما بينهم ، ورد الإمام الغزالي رحمه الله على أغاليطهم وكفرهم في ثلاثة منها وهي إنكار حشر الأجساد ، وإنكار علم الله بالجزئيات ، وقولهم بقدم العالم ، وفسقهم بالباقي.(١٣)

وذهب مذهبهم فرقة الإسماعيلية بأن النظر العقلي غير كاف في أكتساب المعارف ، وقالوا لابد من معونة معلم إلهي (الإمام) بدون قيد أو شرط لأنه وحده الذي يميز بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والحقيقة وقف عليه.(١٤) ، وذهب آخرون إلى أن الإلهام وحده طريق المعرفة وليس العقل.

وقد فند العلماء رحمهم الله والغزالي منهم دعوى الإسماعيلية وبينوا زيفها وأبطلوا حججها ، وأثبتوا بعدها عن الحقيقة والواقع.ورد ابن حزم على القائلين بأن الإلهام وحده طريق المعرفة وليس العقل.(١٥)

الفريق الثاني : ينكر العقل بمفهومه السابق ويذهب الى أن الحواس الظاهرة والمخيلة هي وسائلنا الوحيدة للمعرفة وأن ما يسمى بالعقل إن هو إلا جملة أفعال ترجع إليها. وأصحاب هذا المذهب يدعون بالحسيين أو الماديين وظهر في الفلسفة الاوروبية أخيرا ، ومن الممهدين له فرنسيس بيكون ١٦٢٦م.
وقد قام قسم من علماء الغرب بدراسات علمية تجريبية للظواهر النفسية الخارقة أثبتوا فيها مغايرة العقل للمادة على الإدراك بدون تدخل الحواس كان أهمها ظاهرة التلبائي(انتقال الفكر) وظاهرة الإستشفاف (الجلاء البصري) وردوا فيهما دعوى الحسيين المنكرين لوجود العقل.(١٦)

المطلب الرابع : العقل في الكتاب والسنة المطهرة

لم ترد لفظه العقل في القرآن الكريم مجردة ، والملاحظ أن القرآن استخدم اشتقاق العقل في صيغة الفعل ، وهذا يدلنا على عمق صلة العقل بالحدث والزمان ، وإنه شديد الارتباط بهما ، وإنه لا دخل له في الشؤون الخارجة عن دائرة الزمان والمكان وإقحامه في ذلك مضلة له.
وصيغة المضارعة التي تدل على التجدد والاستمرار ، صاحبت المواطن التي يتجدد فيها الاعتبار والاتعاظ ، لذا نلحظ أن الآيات القرآنية التي ذكرت العقل في طياتها تناولت الموضوعات التي يتجدد فيها الإعتبار والاتعاظ ومن خلالها يتم علاج أمراض العقول المستعصية بسبب الجهل والشرك والضلال والتقليد الأعمى وغيرها ، وسوف نوضح ذلك في المبحث الثاني إن شاء الله تعالى .
ومن القرآن إلى السنة المباركة حديث عظيم الموقع أخرجه أئمة الحديث البخاري ومسلم والترمذي ، ثانيهم بطرق متعددة كلها عن عامر الشعبي ، والبخاري بسند أعلى منه بينه وبين رسول الله ﷺ : أربعة رواه فوجدناه من رباعيات البخاري فأثرناه هنا سند ومتناً .
قال رسول الله ﷺ : (الحلال بين والحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثيراً من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألا ، وإن لكل ملك حمى ، ألا إن حمى الله محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا و هي القلب)(١٧)
قلنا في سند الحديث أنه من الرباعيات ، وفي متنه يقول الإمام النووي رحمه الله : (أجمع العلماء على عظم موقع هذا الحديث وكثرة فوائده وإنه أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام) ، وقال جماعة هو ثلث الإسلام ، وإن الإسلام يدور عليه وعلى حديث الأعمال بالنيات وحديث من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه ، وقال أبو داود السجستاني يدور على أربعة أحاديث هذه الثلاثة وحديث لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه . (١٨)
لاحظ أخي القارئ لطف التصريح والتلميح في كلام خاتم النبيين ﷺ وكيف نبه على إرادة اللطيف الروحاني والكثيف الجسماني من القلب في نص واحد ، السياق ومقتضى الحال واضحان في إرادة اللطيف من لفظ القلب إذ المقام مقام الورع والتقوى ، فلما أراد الشارع الجليل التلميح إلى أن الكثيف أيضا مقصوداً بالنص استعمل لفظ (مضغة) الدالة عليه ثم قال ألا وهي القلب للدلالة عليهما معاً وبيان الكثيف الجسماني هو مظهر اللطيف الروحاني فهو عرش الروح هذا الممنوح هذه القوة الفائقة والمخاطب من ثمة بأحكام رب العالمين تبارك وتعالى . (١٩)

ولفظ القلب في نص الحديث هو ما ذهب العلماء إلى أن العقل في القلب كما مر علينا في المطلب الثاني وهم علماء الشافعية والمتكلمون وغيرهم .

المبحث الثاني : اهتمام القرآن الكريم بالعقل ومعالجة أمراضه

تناول القرآن الكريم العقل في الموضوعات التي يتجدد فيها الاعتبار والاتعاظ سيما لمن أصيب عقله بأنواع الأمراض التي تحجبه عن الإيمان بالله ومعرفته وعن الإيمان باليوم الآخروالاستعداد له ، ويمكن تناولها في تسعة مطالب :

المطلب الأول : العقل ومظاهر الطبيعة

إن القرآن الكريم رفع الحجب عن العقول المريضة ودعاها للتفكر بخلق الله وبديع صنعه وإتقانه فقال عز من قائل :(**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**)[٢٠] ، فهذه الآيات تثير كوامن النفس وتدفعها إلى التأمل والتصور والتخيل ، فهناك السموات والأرض والليل والنهار ، والبحر والبر ، والحياة والموت ، والماء سر الحياة ، والنبات والدواب ، والرياح والسحاب ، فهذه المظاهر كلها تشد الإنسان إلى أن يعمل عقله فيها ويكتشف أسرارها ، ثم لينتقل من الظاهرة إلى ما وراءها ، ومن السبب إلى المسبب ، فإذا وقف الإنسان بعقل رأسه أمام هذه الظواهر فسيحاول استكشاف قوانينها وأسرارها ، لكنه لن يعبر إلى ما وراءها ، فإذا أشرق عقل القلب عليه ، نفذ بسرعة إلى ما وراءها ، فاعتقد بوجود الإله الخالق المدبر ... ، ولذا لاحظنا أن القرآن في صيغه الواردة في العقل استنكر ووبخ الواقفين على الظواهر في(١٦) موضعاً ، ونفى العقل عنهم في (١١) موضعاً مع أن هؤلاء من حيث الظاهر يعتبرون من أعقل العقلاء .

المطلب الثاني : العقل والحياة النباتية

إن إنكار اليوم الآخر من أمراض العقول التي أصابت الكفار والمشركين والماديين والملحدين من الناس والقرآن الكريم عالجها بعرض حياة النبات من حيث البداية والنشأة ومراحل النضوج والكمال الى مرحلة النهاية والفناء ، قال سبحانه وتعالى :(**وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**)[٢١] ، هذه الآية تأخذ الإنسان في جولة على سطح الأرض ليرى اختلاف النبات والأشجار والثمار ، وهذه الأشجار تسقى بماء واحد وتنبت في أرض واحدة ، ومع ذلك تتباين وتختلف ليتساءل العقل من الذي جعلها تختلف مع وحدة الأصل ؟ فالقرآن يقود العقل بالسلاسل الذهبية إلى التفكير والتبصر والتدبر ، لكن هذه المظاهر الواضحة لا يعقلها ولا يدرك حقيقتها إلا قوم يعقلون ومعلوم أن كل انسان لا يخلو من عقل وإن تباينت مستويات العقول ، ففي الآيات العارضة للحياة النباتية آية لعقلاء القلوب لا لعقلاء الرؤوس أموات القلوب!

وحكي عن بعض الدهرية ، أنه سأل الإمام الشافعي رضي الله عنه : ما الدليل يا ترى على وجود الصانع ؟ فأجابه في الحال : [ورقة الفرصاد] أي : ورقة شجر التوت ، ثم شرع يُفصل له ويشرح : فهذه الورقة ــ التي هي من صنع الله ــ طعمها واحد ، ولونها واحد، وريحها واحد ، وطبعها عندكم واحد؟ فهذا أمر متفق عليه ، قالوا نعم .

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : هذه الورقة تأكلها دودة القزّ، فيخرج منها الإبريسم ، أي الحرير الطبيعي ، ويأكلها النحلُ ، فيخرج منها العسل الذي فيه شفاء للناس .

وتأكلها الشاة ، فيخرج منها اللبن والبعر.

وتأكلها الظبية ، فينعقد في نوافجها المسك ، فمن ذا الذي جعلها كذلك مع أن الطبع واحد ؟ فاستحسنوا هذا الاستنباط ، ووقفوا مبهوتين ، وكان سبب إيمانهم[٢٢].

وسئل أعرابي عن الدليل في وجود الخالق فقال : البعرة تدل على البعير، والروث على الحمير، وآثار الأقدام على المسير، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج ، أما تدل على الصانع الحكيم القدير العليم. [٢٣]

وإن كثيراً من العقلاء أنكروا اليوم الآخر ، وبعض من آمن باليوم الآخر أنكر حشر الأجساد كالفلاسفة وغيرهم من السفسطائيون ، وضل ضلالا كبيراً لأنه أغلق عقل قلبه المهيأ للنظر في عالم الملكوت فحكم على الظواهر كما هي دون النفاذ إلى حقائقها ولو نفذ إلى حقائقها لآمن كل من نظر إلى النبات بالله وباليوم الآخر ، قال تعالى : (**وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**)[٢٤] ، فمن نظر في دورة الحياة النباتية ، وكيف تبدأ وكيف تنتهي ، ثم تعود من جديد ، أدرك أن وراء هذه الحياة موتاً وأن بعد هذه الحياة حياة

أخرى ، فإذا اعتقد ذلك انقاد إلى البحث عن أفضل الأسباب الموصلة إلى سعادتها ، فإذا ركب رأسه ضل في البحث وإن اتبع عقل قلبه لم تخدعه أوهام الديانات المحرفة في السلوك إلى اليوم الآخر ، وإلا وقع في دياجير متاهاتها فالآيات الربانية في الحياة النباتية ، لا يفقهها إلا الذين عقلوا عن الله مواضع الحجج ، وفهموا عنه أدلته على ربوبيته ووحدانيته فهي أدلة وبراهين إنما وضعت لذوي العقول والتمييز دون غيرهم من الخلق [٢٥].

المطلب الثالث : العقل وخلق الإنسان وأطوار نشأته

لقد دعا القرآن الكريم العقل البشري الذي ضل واتبع الهوى وسقط في ظلام الكفروالشرك أن يمعن النظر في أسرار وجوده ونعمة ايجاده في أحسن تقويم ، قال سبحانه وتعالى : **(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)** [٢٦] ، لقد تناولت هذه الآية وأخواتها أصل الخليقة وكيف تطورالتراب ، ثم سواه الله ونفخ فيه من روحه فكان إنساناً سوياً ثم بعد آدم وحواء كانت النطفة هي الوسيلة لاستمرارالنوع الإنساني وبقائه ، وأن القرآن إذ يعرض هذه الآيات البينات على وجود الله ، يريد من العقل البشري أن يمعن في حقائق خلق الإنسان وتطور نشأته ، وأن هذه الأطوار تدل على يد خفية وراءها ، وصولا إلى أن الله سبحانه هو المحيي والمميت ، وأن من مقدور العقل البشري الذي يستدل بالشاهد على الغائب الاستدلال على وجود الله تعالى ، وهذه من مهمات العقل الدماغي ، وكلما تقدم العلم ، وتطورت الدراسات الإنسانية أدرك الدارسون أن ما يجهلونه عن الإنسان أكثر مما يعلمونه ، وكانت هذه الدعوة الربانية سبباً من أسباب علاج العقول الضالة في ظلام الكفر والجهل والضياع ، ومن الممكن مناقشة مرض إنكار الحشر بخلق الإنسان والاستدلال بالبداية على الإعادة قال تعالى : **(يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ)**[٢٧] .

المطلب الرابع : العقل والقصص القرآني

ومما ينبغي للعاقل الالتفات إليه ، والعناية به : القصص القرآني ، وما اشتمل عليه من عبر وعظات وأسرار وحكم بالغة .

وطريقة القرآن الكريم في سرد قصص الماضين لا تعتمد على ذكر التفصيلات ، كذكر أسماء الأشخاص والبلدان والتواريخ ونحوها ، إنما يهتم برؤوس العبر، ورسم ملامح الشخصيات التأريخية ، واتجاهات الأحداث ونتائجها ، قال تعالى : **(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)** وعند سرد القصة نجد القرآن الكريم يضمنها كثيراً من الحقائق والأسرار العلمية والتوجيهية والتشريعية ، لتنفذ الى النفس والعقل عن طريق غير مباشر، فبعد نقاش حاد بين سيدنا إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه ، ظهرت حجة إبراهيم عليه السلام ، لكن العقول المنغلقة أبت الإنصياع للحق ، فختمت الآيات بقوله تعالى **(أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)**.[٢٨]

فهذه الآية وأخواتها تندد بعبادة الأوثان ، وترفض التقليد الأعمى ، وتطلب من الإنسان أن يستعمل عقله في كل ما يدور حوله ، وعندما عبد قوم إبراهيم عليه السلام الأوثان ، وهم يرسفون بسلاسل التقليد الأعمى والتبعية الحمقاء ختمت الآيات بالاستفهام الإنكاري توبيخاً لهم وزجراً على موقفهم المتعنت البعيد عن الحق والصواب . وفي هذا المعنى عبرة لكل من أغلق عقله عن الهدى ونور الإيمان فضَّل وأضل بعناده وكفره وبعده عن الحق والصواب فإن مصيره لا محالة إلى الهلاك والعذاب المهين.

وفي قصة سيدنا موسى عليه السلام وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة والسلام مع فرعون يدور الحوار بأساليب متعددة يتفق وسياق السورة التي عرض فيها ، وفي سورة الشعراء دار حوار طويل مع فرعون كما في قوله تعالى : **(فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) ، قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)**.[٢٩] لقد كانت إجابة موسى عليه السلام لفرعون مبنية على الشرط فرب العالمين هو رب السموات والأرض إن كان من الموقنين ، فإذا لم يكن من أهل اليقين فلن يدرك هذا المعنى الظاهر العميق .

وكون الله رب المشرق والمغرب أيضا مشروط بالعقل (إن كنتم تعقلون) ولما كان فرعون لم يتحقق باليقين ، وكان عقل قلبه مغلقاً لا يعمل فالشرط غير متحقق ، وبالتالي لم يتحقق الجواب[٣٠]

إن السؤال المقرون بالنفي انصب على فعل العقل ليبين أنهم لم يستخدموا أداة الفهم والإدراك ، ولو فعلوا لتغير الموقف ، فنفي الفعل نفي لاستخدام الوسيلة الحقيقة للمعرفة ، وكذا إذا انتفى وقوع جواب الشرط انتفى فعل الشرط وثبت أنهم لم يستخدموا عقولهم في الوصول إلى الحقيقة ، أو ثبت أنهم لا يفهمون. [٣١]

والحقيقة واضحة كوضوح الشمس في رابعة النهار أن القرآن الكريم قد عالج أمراض العقول الكثيرة بإسلوب القصص القرآني وذكر النماذج المختلفة في تأريخ الأمم والشعوب ليعطي العقل فرصة التأمل والتدبر والإستنتاج الصحيح ليتخذ المسار المنير والطريق القويم ليعمر الأرض بالإيمان والإحسان فيفوز برضا الله وعفوه وجنته ونعيمه الذي أعده لعباده الصالحين ، ولهذا جاءت دعوة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والتسليم.

المطلب الخامس : العقل والحواس الظاهرة والباطنة ويمكن تناوله في فرعين :

الفرع الأول – صلة العقل بالحواس الظاهرة والباطنة :

هناك ترابط وثيقة بين الحواس والعقل لأن الحواس وسائل العقل ومنافذه ومن خلال الحواس يضع المقدمات ليصل إلى نتائج عقلية ، فمن اختلت حواسه فالخطأ لاحق بأحكامه العقلية قطعاً ، قال تعالى **(وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)**.[٣٢]

فلما أغلق الكفار وسائل المعرفة القلبية فصموا آذان قلوبهم ، وأعموا أعين قلوبهم تحقق سبب عدم فهمهم فهم لا يعقلون .

ولذلك قالوا من فقد حاسة فقد فقد علماً ، فإذا كان من فقد حاسة ظاهرة فقد علماً ، فكيف بمن فقد حواسه جميعها ، وكيف بمن فقد جميع حواسه القلبية ، فلم يعد يرى إلا ما تراه الحواس ؟ فهو بلا شك قد عطل عقله الدماغي ، وعطل بالكلية عقله القلبي ، فمن أين له الفهم عن الله ﷻ وعم نواله ؟! لذلك وصفهم الله تعالى بقوله : **(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ)** [٣٣] ، **(أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا)**.[٣٤]

الفرع الثاني : الفروق بين العقل والحواس الظاهرة والباطنة

وهذا الفرع يتناول أمرين :

الأول : فضل العقل على الحواس فالمتابع المنصف يعلم أنه مع الصلة الوثيقة بين العقل والحواس إلا أن هناك فروقاً بين الحواس ومعطياتها ، وبين العقل ومعطياته ، وقد ذكر الإمام الغزالي سبعة فروق بين نور العقل ونور البصر ، والملاحظ أنه عنى بالعقل مسماه الأصلي والنفس والروح في المعنى النوارني فقال : (في الأعين عين منزه عن هذه النقائص كلها ، فليت شعري هل هو أولى باسم النور ، فعلم أن في قلب الإنسان عيناً هذه صفة كمالها ، وهي التي يعبر عنها تارة بالعقل وتارة بالروح ، وتارة بالنفس الإنساني .

ولنسمه عقلاً متابعة للجمهور في الإصطلاح ، فنقول العقل أولى بأن يسمى نوراً من العين الظاهرة لرفعة قدره) [٣٥] ، وأوصل الإمام الرازي الفروق إلى عشرين لكنه سار على نهج الإمام الغزالي من حيث عدم التفريق ، وسأحاول إبراز الفروق بين الحواس والعقل الدماغي مستأنساً بما كتبه الإمام الغزالي والإمام الرازي رحمهما الله تعالى :

١- الحواس لا تدرك نفسها ، والعقل يدرك نفسه وصفاته ، ويدرك غيره فالحواس لا تدرك نفسها ، لأنها تتعلق بالمحسوسات وإدراكها لنفسها من الأمور المعنية التي لا سبيل للحواس إليها .

٢- الحواس لا تدرك الأشياء إلا ضمن مجال معين ، فالعين لا تبصر الأشياء الملاصقة لها ولا البعيدة بُعداً كبيراً ، والأذن لا تسمع كل الموجات الصوتية وإنما هي ضمن مجال محدد فلا تسمع الأصوات المنخفضة جداً ولا الأصوات العالية جداً ، ولا تميز بين الأصوات إذا علت واختلطت ، وأثبت العلم أن أصواتاً كثيرة ، في الأثير لا تسمعها الأذن إلا بوساطة الأجهزة العلمية ، وكذلك الشأن بالنسبة للشم واللمس ، والعقل يستوي عنده القريب والبعيد وغير محدد بعوائق الأجسام .

٣- الحواس لا تخترق الحجب لتحس ، وإنما تحس ما وقع في دائرتها أما العقل فيخترق الحواجز والحجب ليرى ما وراءها ، محللاً ومركباً وبانياً .
٤- الحواس تتعلق بظواهر الأشياء والعقل يتغلغل إلى بواطنها باحثاً عن أسرارها وحقائقها .
٥- الحواس لا تبحث عن الأسباب والمسببات وهي مهمة العقل فهو يستنبط الأسباب والعلل والحكم ، ويحلل الدوافع والنتائج .
٦- الحواس تدرك بعض الموجودات وتقصر عن كثير منها ، كالصفات النفسية الباطنة والمحسوسات البعيدة ، أو القريبة التي تقع تحت درجة الحواس والصفات المعنوية كالحب والبغض والعلم والجهل ، بينما يعمل العقل في المحسوسات الظاهرة والباطنة ، والقريبة والبعيدة ، ويبحث في المعنويات إذ مجاله الوجوب والإمكان والمستحيل .
٧- إدراك الحواس متناه ، لأنها تتعلق بالأجسام ، والأجسام لا تتصور إلا متناهية والعقل غير متناهي الإدراك ، لتعلقه بالمعقولات وهي غير متناهية .
٨- الحواس معرضة للخطأ في الحكم بحسب الزمان والمكان والحال والعقل إن تجرد عن الوهم والخيال وعوارض الأهواء والشهوات لا يتصور غلطه ، وفي تجرده عسر شديد .[٣٦]
٩- الإدراك الحسي غير منتج ، والإدراك العقلي منتج فهو يجمع بين المحسوسات فيطلق عليها أحكاماً لم تكن موجودة ، ويقيس الغائب على الشاهد والشاهد على الغائب ، وهذا ليس من شأن الحواس .
١٠- الحواس وسائل العلوم ، والعقل صانع العلم من الحواس ، وينتج علوماً جديدة من خلال معطيات الحواس والمخزون العلمي الموهوب والمكتسب فيخرج علوماً جديدة .
١١- الحواس لا تتسع لإدراك الأمور الكثيرة بنفس الوقت ، فتوالي الصور يعجز العين عن التمييز ، وسرعة الكلام يلبس على السمع ولا يحصل التمييز ، والإدراك العقلي يتسع لها ، لأن الإنسان كلما اتسع تحصيله العلمي كانت قدرته على كسب الجديد أعظم وأسهل .
١٢- الحواس يشغلها حس عن حس ، فمن سمع الصوت العالي لا يمكنه سماع الصوت الخفيض في تلك الحالة والعقل لا يشغله معقول عن معقول .
١٣- الحواس تضعف مع مرور الزمن لا سيما بعد الأربعين ، والعقل في نمو مستمر منذ الولادة ويزداد قوة بعد الأربعين .
١٤- القوة الحسية مفتقرة إلى الآلات ، إذ بخراب الحواس تتعطل ، والقوة العقلية مستغنية عن الآلات .
١٥- الحواس تتعلق ببعض المخلوقات ، والعقل يتعلق بخالق المخلوقات وهو الله رب العالمين .
١٦- الإنسان بحواسه يشارك البهائم وبعقله يشارك الملأ الأعلى وبإدراك بعض حقائق الأشياء يشارك الله تعالى في الصفة لا في الحقيقة .
١٧- إدراك الحواس يتعلق بالجهات ، والعقل مبرأ على الجهات .
١٨- الحواس خدم للعقل والعقل أمير عليها .
١٩- العقل حاكم والحواس محكوم عليها.
٢٠ – العقل أصل والحواس فروعه .[٣٧]

الثاني : فضل الحواس على العقل

وذلك أن الحواس الباطنة متميزة على العقل في الدنيا ، بينما تمتاز الحواس الظاهرة على العقل في الآخرة .

ذكرنا الفروق التي تبين شرف العقل على الحس وهذا شأن عقل الدماغ على الحواس أما حواس القلب ففضلها بين على العقل الدماغي والقلب في الحياة الدنيا وللحواس الظاهرة الفضل على العقل في الآخرة ، وهذا ما أكده ابن عربي إذ قال (... ومن هنا صح شرف الحس على العقل : فإن الحس غيب في العقل ، والعقل اليوم هو الظاهر ، فإذا كان غداً في الدار الآخرة كانت الدولة في الحظيرة الإلهية ، وكثيب الرؤية للحس ، فنظرت إليه الأبصار وكان الغايات للأبصار والبدايات للعقول ولو لا الغايات ما التفت أحد إلى البدايات .

فانظر ما هنا من الأسرار : وهو أن الآخرة أشرف من الدنيا ، قال الله تعالى **(تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)**.[٣٨]
وقال **(وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)**. [٣٩]
ثم إن الآخرة لها البقاء والدنيا لها الزوال والفناء ، والبقاء والديمومة أحسن وأشرف من الذهاب والفناء .
ثم أن المعرفة بالله ابتداء علم ، وغايتها عين وعين اليقين أشرف من علم اليقين والعلم للعقل والعين للبصر ، فالحس أشرف من العقل ، فإن العقل إليه يسعى ومن أجل العين ينظر) .
فصار عالم الشهادة في الدنيا مقيد عما يجب له الإطلاق فإذا مشى على حقيقته ، وانطلق من التقييد بانفتاح حواس القلب في الحياة الدنيا بدأ العقل يأخذ عن الحواس علومه كما هو شأن الآخرة فيصبح العقل لعالم الحس ساعياً وخادماً [٤٠] .

المطلب السادس : العقل والقرآن الكريم واللغة العربية
صلة القرآن بالعرب صلة وثيقة وهذه الصلة تستدعي الانتباه العقلي ، للوقوف على حقائقها وأسرارها ، ولا غرو أن جعل الله تعالى الآية الكبرى ، والمعجزة العظمى لخاتم رسله آية عربية أدبية، ومعجزة بيانية عربية،أثّرت في خصومها وأنصارها على حد سواء : القرآن الكريم ، وذلك لينبهنا على قيمة اللغة العربية وآدابها ، ومنزلة البيان فيها.
فالقرآن الكريم شرف للعرب قال الله تعالى : (**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)** [٤١](**وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ)** [٤٢] **(لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)**[٤٣] ، فهذه الآيات وغيرها تقرر أن القرآن شرف للعرب وهذا مدعاة للتدبروالتفكر فكون هذه اللغة العجيبة قد ساعدت الكثير من العقول المريضة على التخلص من عللها بهدي الآيات القرآنية وأسرارها وأنوارها التي لاتنتهي فالقرآن ذخيرة لاتنفد ، ومعين لاينضب لإمداد العقلاء .

فلما لم يدرك بعض العرب هذه الحقيقة استنكر القرآن عليهم ووبخهم بقوله تعالى : (أفلا يعقلون) أي ليست لهم عقول يعقلون بها ليؤمنوا به وهكذا تتوالى آيات القرآن الكريم تتحد ى العرب حيناً كما في قوله ﷻ وعم نواله :

(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٤) وتذكرهم الماضي القريب حينا آخر قال تعالى : **(قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)**. [٤٥]
لقد كان رسول الله ﷺ موضع ثقتهم واعتزازهم وإكبارهم واحترامهم خلال أربعين سنة ، فما الذي تغير بعد نزول القرآن ؟ إن تحكيمهم عقولهم كفيل بإدراك هذه الحقيقة وتبيانها .
فإذا استنكر هؤلاء العرب نزول القرآن على بشر جاء القرآن ليقرر أن جميع المرسلين رجال من البشر قال تعالى : **(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ)** [٤٦] .
وقد حوى القرآن الذي أنزله الله تعالى بلسان عربي مبين من حقائق الغيب ، وحقائق النفس والعقول،وحقائق الحياة ، وحقائق الإجتماع الإنساني ، وبين من سنن الله تعالى ، ومن آياته في الأنفس والآفاق ما لايستغنى بشر عن معرفته ، والاهتداء به ، وقد صاغ ذلك كله في أسلوب معجز هو نور من الكلام أو كلام من النور لايوصف إلا بأنه : **(كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)**.[٤٧]

المطلب السابع : العقل والأمثال في القرآن الكريم .

قال تعالى : **(وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ)**[٤٨] إن الأمثال التي يضربها القرآن للناس سهلة بليغة عميقة لكن لن يدرك أبعادها الحقيقية ومراميها ، ويفهم مغازيها وأهدافها (إلا العالمون) فلا بد من اجتماع آلات المعرفة كاملة حتى تكون النتائج سليمة صحيحة إذ هناك رباط قوي بين عمل العقل والعلم والعلماء وبالتالي لا بد من ترادف العلم والعقل وانفراد أحدهما عن الآخر يؤذن بالإنحراف .

قال تعالى مخاطبا اليهود وكل من هو على شاكلتهم : (**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)** [٤٩] ، إن التناقض الفاضح بين القول والفعل ، بين المواقف والسلوك مع العلم بذلك ، علامة على عدم نضوج الإنسان الفكري والعقلي ، إذ لو كان عاقلاً لكان أول الطائعين الممتثلين لما يقول ويعتقد ، وهذا جهل فاضح وقلة إدراك للأشياء .

وقد أوفى القرآن بذكر النماذج التي تصور لنا الشخصية الإنسانية في مختلف المجالات والأحوال ومنها نموذج الغني الشاكر في شخصية سليمان عليه السلام ، والملك العادل الذي لم يلهه سعة ملكه عن عبادة ربه ، ورعاية شعبه ، في شخصية ذي القرنين ، ونموذج المبتلى الصابر على البلاء ، والرضا بالقضاء ،في شخصية أيوب عليه السلام ، ونموذج الشاب المتعفف عن الحرام برغم فتوته وجماله ونضرة شبابه وقوة دواعي الإغراء من حوله في شخصية يوسف عليه السلام ، ونموذج الابن المؤمن وأبوه الكافر وكيف يتلطف معه في إسماع الدعوة وتبليغ الرسالة ، وذلك في شخصية إبراهيم عليه السلام ، ونموذج المرأة المؤمنة وزوجها كافر متعنت بل متأله ، وذلك في شخصية آسيا امرأة فرعون وزوجها الطاغية الجبار المتكبر، كل هذه النماذج الكثيرة تمثل سبباً من أسباب علاج العقول المغرورة بدنياها الفانية العاجلة ومثبتا لها في مواجهة التحديات في الدنيا والآخرة.

المطلب الثامن : العقل بين غرور الدنيا ونعيم الآخرة

الدنيا دار الغرور والفناء والنكد والتعب والإبتلاء زلت فيها أقدام الجبابرة والطغاة وتاه في ظلامها أصحاب النفوس الأمارة بالسوء وضل في سوادها مرضى العقول والقلوب قال تعالى (**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآَخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)** [٥٠] .

أخي الحبيب المتابع تصور هذه الآية القرآنية واخواتها الحياة الدنيا أنها ظل زائل ، وهي دار لهو ولعب ، فيها الغرق في الملاذ والشهوات ، ثم ما تلبث أن تخدعه بتغيرها وتقلباتها ، فيكتشف في النهاية أن الحياة إنما كانت سراباً يحسبه الضمآن ماء حتى إذا جاء لم يجده ، فأيقن هلاكه .

فالعاقل الذي يدرك هذه الحقيقة يجعل الدنيا مزرعة للآخرة لأن الحياة الدنيا قصيرة محدودة ، والآخرة طويلة لا انتهاء لها ، والدار الآخرة خير من الأولى ، إذا فالمطلوب هو المقارنة والموازنة ثم الاختيار المسؤول ، وهذا يدعو إلى الغور في أعماق الأشياء ، والنفاذ إلى العواقب ثم يكون القرار، فمن وقف مع الظواهر الحسية خسر الدنيا والآخرة ومن نفذ بثاقب عقله إلى الحقائق تعلق قلبه بخالق الظواهر ونال ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة .

المطلب التاسع : أحكام الشريعة والعقل

العقل الغريزي في الشرع مناط التكليف [٥١] ، والقرآن عندما يشرع الأحكام يريد من العقل النهوض لإدراك التشريع الرباني ومزاياه ، فبعد أن عرض القرآن لأحكام الاستئذان قال سبحانه (**كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)** [٥٢] .

وبعد عرض المحرمات في الإعتقاد والشؤون الاجتماعية العامة قال تعالى :(**ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**) [٥٣] فجاءت هذه الآيات تخاطب العقلاء : لأنهم القادرون على فهم خطاب الشارع الحكيم ، أما غير العقلاء فليسوا أهلا لفهم مراد الله من تشريعه وأحكامه .

وخلاصة مذهب أهل السنة والجماعة في معنى العلاقة بين العقل والأحكام الشرعية أن أفعال المكلفين فيها خواص ولها آثار تقتضي حسنها وقبحها ، وأن العقل بناء على هذه الخواص والأثار يستطيع الحكم بأن هذا الفعل حسن وهذا الفعل قبيح ، وما رأه العقل السليم حسناً فهو حسن ، وما رأه العقل السليم قبيحاً فهو قبيح ، ولكن لا يلزم أن تكون إحكام الله في أفعال المكلفين على وفق ما تدركه عقولنا فيها من حسن أو قبح ، لأن العقول مهما نضجت قد تخطىء ، ولأن بعض الأفعال مهما تشتبه فيه العقول ، فلا تلازم بين أحكام الله وما تدركه العقول.

وعلى هذا لا سبيل الى معرفة حكم الله إلا بواسطة رسله، وفي هذا القول علاج لمرض عقول المعتزلة ومن سار على منوالهم وفهمهم الخاطىء حين قدموا العقل على الشرع ورسالة الرسل ، وجعلوا من الناس مكلفين قبل بعثة الرسل ومحاسبين وإن لم تبلغهم الدعوة، على أن العقل يحسن الأشياء ويقبحها وأن أحكام الله في أفعال المكلفين هي على وفق ما تدركه عقولهم فيها من حسن أو قبح. [٥٤]

المبحث الثالث : أمراض القلب وعلاجها

إن الله ﷻ وعم نواله قد شرف الإنسان وكرمه ، وكان أعظم ما شرفه به وكرمه العقل ، فألحقه بسببه بالملأ الأعلى ، وبه تأهل لمعرفة الله تعالى بارئه ومبدعه ، فاستدل بما حوله ، وعلمه على وجود الخالق البر الرحيم ، والعقل مفطور على التمييز بين الحسن والقبيح والحسن والأحسن ، والقبيح والأقبح كما تقرر سابقاً ووصفه بالخيرية من هذه الجهة ، إلا أنه في الحقيقة يحمل معنى الأداة ، فمن سلك طريق الخير كان عقله عوناً له في اختيار أفضل السبل وأسهلها للوصول إلى الغاية ومن سلك طريق الشر كان عقله عوناً له في اختيار أفضل السبل وأسهلها للوصول إلى الغاية ، وهذا معلوم من خلال ملاحظة أصحاب الشر والفجور والكفر فإن عقولهم لا تفتأ تخطط وتنظم للوصول إلى الغاية من جهة ولنشر ما هي عليه بين الناس من جهة ثانية ، قال أبو عبد الله بن الأزرق : (العقل يشير على النفس بترك القبيح ، فإن لم تقبل منه لم يتركها ، لأنه ليس فيه غضب ؛ لكنه يريها أصلح وقت ينبغي أن يفعل ذلك الشيء فيه وأحمد جهة يوجدها ؛ لأنه يعطي الخير دائما لمن وكل به). [٥٥]

فإذا قوي العقل بأنوار الشرع أصبحت النفس تابعة له ، لأن التحرك من جهته خير محض حينذاك ، لأنه محرك من جهة البارئ سبحانه ، ولا يعني هذا الحركة الجسمانية ، بل الحركة النزوعية الشوقية ؛ لأن النفس تعكف نحو الأسفل وهو يتجه بها نحو الأعلى. [٥٦]

وسنعرض لأهم ما يعتري العقل من مرض فيصده عن معرفة وجهة الحق والصواب في اثني عشر مطلباً.

المطلب الأول : نقص العقل

وسنبحث فيه حقيقة هذا المرض ، ومنهج الشرع الشريف في علاجه وذلك في فرعين :

الفرع الأول حقيقة مرض نقص العقل : أكمل الناس عقولاً هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولا يقترب من رتبة عقولهم إلا القلة من الناس ، كما أن الاتصاف بكمال العقل إن حصل لكثير من الناس فاستمراره عسير ، لذا كثيراً ما نلاحظ تفاوت مواقف الناس وأفكارهم وسلوكياتهم ، فتارة تبدوا في تمام العقل وأخرى نقبضها ، مما يستغرب المرء صدور هذين الموقفين من شخص واحد ، قال مطرف بن عبد الله بن الشخير : (ما من الناس أحد إلا وهو أحمق فيما بينه وبين ربه ولكن الحمق بعضه أهون من بعض) [٥٧] وقال (عقول كل قومٍ على قدر زمانهم)[٥٨] ، وقد أشار الأستاذ أبو سعيد بن لب الأديب السوري الحموي إلى عزة وجود العقل الكامل وندرته[٥٩] .

وقال وكيع رحمه الله تعالى :

لكل امرئ شكل من الناس مثله ... فأكثـــرهم شكلاً أقلهم عقـــلاً

لأن صحيح العقل ليس بواجد ... له في طريق حين يسلكها مثلاً [٦٠]

وقد أشار رسول الله ﷺ إلى نقص العقل عند كفار قريش وصناديدها عندما سنحت لهم الفرصة بالنجاة من القتل في بدر لما اقترح عليهم عتبة بن ربيعة بالعودة إلى مكة وعدم المجازفة بحرب المسلمين ، لكنهم رفضوا وأطاعواالجهول أبا جهل فأوردهم الى موارد الهلاك والعذاب الأبدي في نارجهنم ، فقال رسول الله ﷺ عندما نزلوا أرض المعركة ورأى عتبة في القوم على جمل له أحمر : (إن يكن في أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشدوا)[٦١] لكن القوم لا عقل لهم فعاندوا لنقص عقولهم فهلكوا.

وأدرك كعب ابن أسد أن اليهود قوم لا يعقلون - كما وصفهم الله تعالى – وأن عقولهم ناقصة وهم يسألونه عن مصير أصحابهم بعد أن حكم عليهم سعد بن معاذ بحكم الله من سابع سماء ، فقالوا له ياكعب ما تراه يصنع بنا ؟ قال : أفي كل موطن لا تعقلون ؟ألا ترون الداعي لا ينزع ، وأنه من ذهب به منكم لا يرجع ؟هو والله القتل.[٦٢]

ومما يدل على نقص العقل عند اليهود أن رسول الله ﷺ : قد وهب الزبير اليهودي وأولاده وأهله وماله لأحد أصحابه الكرام ليد بيضاء عليه ، لكن الزبير اليهودي اختار القتل على كرم رسول الله ﷺ وعفوه ليموت مع الخائنين من يهود بني قريظة. [٦٣]

الفرع الثاني : علاج القرآن لهذا المرض:

عالج القرآن الكريم بآياته المباركة هذا المرض بعدة علاجات متكاملة وهي :

١- الإستخارة : أن يستخير المرء ربه فيما يريد ، والله هاديه ومرشده لقوله ﷺ : (ما خاب من استشار ولا ندم من استخار) ، والندم من علامات نقص العقل وعدم الدقة في الأختيار والأسف على التسرع في طلب الحاجة من غير تروي وحسن الأختيار وعن جابر رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها .[٦٤]

٢- إعمال العقل والاستفادة من تجارب النفس ، وتجارب الآخرين أمما وأفراداً كل حسب مكانته وهمته ، وقد وردت أقوال كثيرة تبين أهمية الاستفادة من تجارب الحياة وأنها تدرك بأصحابها كاملي العقول لذلك قيل :

(كل شيء يحتاج إلى العقل والعقل يحتاج إلى التجارب)[٦٥]
و كذلك : (والعاقل من وعظته التجارب). [٦٦]

وفي وصية سيدنا علي كرم الله وجهه لابنه الحسن رضي الله عنه (أي بني ! إني وإن لم أكن عمرت أعمار من كان قبلي ، فقد نظرت في أعمارهم ، وفكرت في أخبارهم حتى عدت كأحدهم بل كأني بما انتهى إلي من أمورهم قد عمرت مع أولهم إلى آخرهم ، فعرفت صفو ذلك من كدره ونفعه من ضرره ، واستخلصت لك من كل أمر دخيله ، وتوخيت جميله ، وصرفت عنك مجهوله)[٦٧] وفي أهمية التجارب في الحياة والاستفادة منها تظافرت أقوال العقلاء والعلماء والصلحاء [٦٨] .

٣- الاستشارة : وقد أمرنا الله تعالى بالاستشارة بقوله : **(وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)** [٦٩] وامتدح المؤمنين فقال : (وأمرهم شورى بينهم) والمرء مهما بلغ به العقل محتاج إلى رأي الآخرين ، لأن المرء إذا (شاور العاقل فقد صار عقله إليه) [٧٠] ، وقال عمر رضي الله عنه : (ما تشاور قوم قط إلا هدوا إلى رشدهم) [٧١] ، وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : (من استبد برأيه هلك ومن شاورالرجال فقد شاركها في عقولها) [٧٢]
فالاستشارة تسد نقص العقل كما هو شأن الاستخارة والتجارب ، ولذا كان يقال : (من أجهد رأيه واستخار ربه ، واستشار صديقه ، فقد قضى ما عليه ، ويقضي الله في أمره ما أحب) [٧٣]

المطلب الثاني : زيادة العقل المفرطة

فضل العقل أمر محمود لكن آفاته كثيرة وصاحبه إن لم يلتزم بشرع الله ويكن تبعاً له قاده فضل عقله إلى التأويلات الضالة ، والمسالك المنحرفة ، وهذا بين واضح من خلال زعماء الفرق الضالة في الإسلام ، ففضل عقولهم قادهم إلى استخدامها في الشر ، والتحايل على الشرع والتمحل في استخراج الأدلة ، قالت الحكماء : (فضل الأدب في غير دين مهلكة ، وفضل الرأي إذا لم يستعمل في رضوان الله تعالى ومنفعة الناس قائد إلى الذنوب ، والعقل غير المتورع عن الذنوب خازن الشيطان) [٧٤] وقد ذكر أهل العلم عدداً من الأمراض الناتجة عن زيادة الكمية في النفس العاقلة وهي : مجاوزة النظر عن الحد الواجب ، كالحكم على المجردات بالأجسام الحسية والوهمية)[٧٥] ، والمكر ، والخبث ، والتداهي واستعمال الحيلة ، والمخادعة ، والغدر ، والكذب ، وغير ذلك .[٧٦]
وزيادة العقل المفرطة لا ضابط لها إلا كثرة الخشية والمراقبة لله تعالى ، لذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (لست بالخب ولا الخب يخدعني) [٧٧] ، وذكر المغيرة بن شعبة عمر رضي الله عنهما فقال : (كان والله أفضل من أن يخدع ، وأعقل من أن يخدع) [٧٨] وعزل زياد بن أبيه وكان كاتبا لأبي موسى الأشعري فقال له زياد : (أعن عجز عزلتني يا أمير المؤمنين أم عن خيانة ؟ فقال : لا عن ذاك ولا عن هذا ، ولكني كرهت أن أحمل العامة على فضل عقلك)[٧٩] ، (لأن زيادة العقل تقضي بصاحبها إلى الدهاء والمكر وذلك مذموم وصاحبه ملوم). [٨٠]

المطلب الثالث : الجهل

قال تعالى : **(قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)**[٨١] وقال سبحانه : **(فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)** [٨٢] ، وليس أضر على الإنسان من الجهل فإن بني إسرائيل من جهلهم سألوا موسى عليه السلام بعد أن أنقذهم الله من فرعون : **(قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آَلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)** [٨٣] ، ولو علموا حقيقة الأصنام وحقيقة ما يدعوهم إليه ما طلبوا منه أن يعبدوا صنماً وقد أخرجوا من ديارهم من أجل إيمانهم بالله .

وارتكب قوم لوط عليه السلام الفواحش لجهلهم بما تجرعليهم من البلايا والكوارث قال تعالى في محكم كتابه الكريم :

(أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) [٨٤]

والجهل هو الذي دعا أقواما لرفض دعوة الرسل والإصرار على عبادة الأصنام قال الله تعالى في كتابه المبارك:

(قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ) [٨٥] بل دعاهم الجهل إلى الدعوة إلى عبادة غير الله تعالى **(قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ)** [٨٦] والجهل بشتى مراتبه وأنواعه ضار بالعقل ومؤثر فيه لا سيما الجهل بالله تعالى .

والجهل كما ذكره ابن حبان في روضة العقلاء

أربع مراتب :

١- المائق : وهو الأحمق الغبي في نفس الوقت .
٢- الرقيع : الحقير الذي فيه موطئ للذم ، أو الذي في عقله مرض .
٣- الأنوك : وهو الأهوج البذيء عديم القيمة .
٤- الأحمق : قليل العقل ، الذي لا يميز بين العدل والجور والحق والباطل .

وقال الجاحظ : (الأحمق هو الذي يتكلم بالصواب الجيد ثم يجيء بخطأ فاحش). [٨٧]

المطلب الرابع : التقليد الأعمى

حب التقليد مركوز في فطر الناس وعقولهم ، ولكن الشرع لا يرض من الإنسان التقليد الأعمى غير المستبصر ، وإن أمر الإنسان بالاتباع والتقليد للأنبياء والرسل وورثتهم الكاملين ، قال الله تعالى **(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)** [٨٨] ، وقال سبحانه **اسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)** [٨٩] التقليد الأعمى داء دوي وعلة يصعب البرء منها ، إذا أنها تستبد بصاحبها حتى لا تبق له عقلا ولا رأياً وقد صور القرآن هؤلاء المقلدين في صورة غاية في البشاعة فقال تعالى : **(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آَبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آَبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ)** [٩٠] ، لقد كانوا سفهاء أصحاب تقليد قلدوا أباءهم فألغوا عقولهم بتبعيتهم لهم ، وكان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون سبيلا [٩١] والحق أنه لا ضال أضل من صاحب التقليد الأعمى .[٩٢]

وقال الله تعالى : **(بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آَبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آَثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آَبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آَثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آَبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)**[٩٣] ولقد دعى التقليد الأعمى أقواماً إلى اقتراف الفواحش والموبقات ، فقال سبحانه في وصفهم : **(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آَبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)**. [٩٤]

المطلب الخامس :

عدم معرفة استخدام العقل بالوجه الصحيح

إن الإنسان إذا لم يحسن صرف عقله للتفكير فيما ينفعه في دنياه وآخراه سار العقل من غير ضابط ، فلربما اعتقد ما يجب الكفر به ، وكفر بما يجب الإيمان به ، ومن كان هذا حاله ، ولم يستفد من عقله فكأنه لا عقل له ، وهذا الذي جعل أصحاب النار يقولون **(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)** . [٩٥] ، لقد كانت لهم عقول لكنهم لم ينتفعوا بها ولم يكن لهم فهم ووعي لما جاءت به

الرسل ، فيرشدهم عقلهم إلى اتباعهم .[٩٦] إذ لو كانت لهم عقول صحيحة لقبلوا كلام الرسل جملة من غير تفتيش اعتماداً على ما لاح لهم من صدقهم ، ولأدركوا حكمة ما جاءوا به لو تفكروا تفكر المستبصرين . [٩٧]

المطلب السادس : المكابرة

قال الشريف الجرجاني : (المكابرة هي المنازعة في المسألة العلمية لا لإظهار الصواب بل لإلزام الخصم وقيل : المكابرة مدافعة الحق بعد العلم به) [٩٨]

والمكابرة من الأمراض الخطيرة التي تفتك بالعقل ، إذ أنها تحجبه عن الرؤية السلمية ، وبلوغ الحقائق ، وتدفع المرء إلى محاربة الحق ، حيث يرفض المكابر المعرفة الصحيحة ويكذبها ، رغم أنه متيقن بصدقها وصحتها ، مما يغرق المكابر في جهل لا يقدر على الخروج منه وتجعله يعيش في اضطراب نفسي ، وقلق وتوتر لرفض ما يصدق حقيقة من الأمور وبالتالي يولد التحدي والكفر. [٩٩]

وهذا الذي نجده في أخلاق الكفار والمعاندين والجاحدين ، وكان صناديد قريش يمثلون عنفوان المكابرة في جحود نبوة سيدنا محمد ﷺ : مع ما استقر في أنفسهم من صدقه ، قال تعالى : **(قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ)** [١٠٠] ، عن علي كرم الله وجهه قال : قال أبو جهل للنبي ﷺ : (إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به) ،وقال (وإني لأعلم أنه صادق ولكن متى كنا تبعاً لنبي عبد مناف) [١٠١] ، وقد صور القرآن الكريم موقف الوليد بن المغيرة بعد أن عرف أحقية ما جاء به رسول الله ﷺ: قال تعالى : **(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ)**[١٠٢] قال الآلوسي : (إن الذي يظهر من تتبع أحوال الوليد أنه إنما قال ذلك عناداً ، وحمية الجاهلية ،لا جهلاً بحقيقة الحال). [١٠٣]

المطلب السابع : إتباع الأوهام والخرافات

وهذا المرض العقلي ناتج عن الاقتران والسببية ، الذي ينم عن سطحية في التفكير ، فيحكم على الأشياء من خلال بعض الظواهر ، فتأتي الأحكام عشوائية لا رابط بين السبب والفعل ، وهذا الذي نجد صورته في التطير ، فيتشاءم الإنسان من شيء لا صلة له حسية أو عقلية بين الأمرين [١٠٤] ،

وقد كان التطير مسيطراً على عقول العرب في الجاهلية ، فجاء الإسلام ليحررهم من هذا المرض وأمثاله حتى تتحرر عقولهم ، فقال ﷺ :(لا عدوى ولا طيرة ، ولا هامة ، ولا صفر) [١٠٥] ، فقد بين هذه الحديث أن الأمراض لا تعدي بذاتها ، وإنما الأمر راجع إلى الله تعالى بقضائه وقدره ، ونهى المؤمنين عن التطير والتشاؤم ، لرؤية بعض الأشياء ، أو لسماع بعض الأصوات ، وأصلها عند العرب تطير الطير فإنه طار يمنة يتيمن به واستمر ، وإن طار يسرة تشاءم به ورجع ، ونهى عن الاعتقاد بالهامة ، وذلك أن العرب تعتقد أن الرجل إذا قتل ولم يؤخذ بثأره خرجت من رأسه هامة ، تدور حول القبر تقول اسقوني ، فإن أدرك بثأره ذهبت وإلا بقيت ، والصفر مرض يصيب البطن وتعتقد العرب أنه معد . [١٠٦]

وقد بين الله سبحانه هذا المرض العقلي عندما عرض قصة أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ، فكان جواب أصحاب القرية : **(قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ)** [١٠٧] أي تتشأمون منهم ، لاستغرابهم ما ادعوه ، وإدعائهم أنهم لم يروا في وجوههم خيراً فاستقبحوها ونفروا منها ، والحق أن سوء اعتقادهم وأعمالهم هي سبب شؤمهم ، لأن من كانت عادته الإسراف في العصيان فتحت عليه أبواب الشؤم ، ومن هذا حاله يتشاءم من رؤية الأنبياء والصالحين ، كالجعل إذا شم طيباً مات ، وهؤلاء تأذوا من رؤية المرسلين وكان الواجب عليهم أن يكرموهم ويتبركوا بهم . [١٠٨]

وهذا المرض العقلي الخطير استشرى في كثير من الأمم عبر العصور ، فها هي ثمود يدعوهم صالح عليه السلام إلى عبادة الله تعالى فيردون عليه : (**قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ)** [١٠٩] ، وقد سرى هذا الداء إلى بني إسرائيل قال تعالى : **(فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)**. [١١٠]

الخاتمة :

يتضح للقارئ الكريم من خلال هذا البحث المتواضع في مجهوده عدة أمور منها :

١- اللغة وسيلة الفهم وأداة العقل .
٢- العقل وسيلة العلماء لتحصيل العلوم .
٣- دراسة الظواهر الطبيعية في الحياة يعطي العقل فكرة عن مصير الدنيا ، وهذا يدفع العاقل إلى التعلق بالملأ الأعلى .
٤- العقل وسيلة للتذوق الأدبي .
٥- العقل هو الذي يميز بين الخير والشر ويختار الأفضل ويدفع صاحبه للعمل .
٦- العقل يبحث في الخالق والمخلوق ، ويمكنه الفصل بينهما في الذاتي والصفات والأفعال ، وإن المساواة بينهما مستحيلة .
٧- إن عقل القلب هو الذي يتوجه إليه الخطاب الإلهي وإن من عدمه عدم العقل المفيد .
٨- مهمة العقل الدماغي إيصال صاحبه إلى وجود خالق الكون وبقية المسيرة تكون باتباع الرسل وتطبيق منهجهم السليم .
٩- نقص العقل والزيادة المفرطة من الآفات الخطيرة التي تهدد وظيفة العقل ، وعلاجهما بالعلم والخشية من الله تعالى ودوام ذكره ومراقبته ومناجاته.
١٠- الجهل والتقليد الأعمى آفتان مدمرتان للعقل وسبب لهلاكه لأنهما علتان قاتلتان لوظيفة العقل التي اختارها الله تعالى نوراً وضياءً للإنسان وعلاجهما بمتابعة العلماء الصالحين والاهتداء بتوجيهاتهم ونصائحهم المنجية من الجهل والتقليد الأعمى .
١١- غلبت الشهوات سبب ضياع رجاحة العقل والميل عن طريق الحق والصواب وعلاجها بتقوى الله ومخافته .
١٢- المعاصي والذنوب داء العضال إذا تمكنت من العقل عطلته عن أداء واجبه وانحرفت به نحو المهلكات وجعلته كالبهائم وعلاجها بمتابعة أنوار الشريعة الغراء .
١٣- محبة غيرالله تعالى تزيل العقل عن موقعه وتحطم أفكاره وتخرجه عن طريق الحق وتوقعه بأتون الشرك والضلال .

ربنا عليك توكلنا وإليك المصير ، نور عقولنا بنور وحيك ووجهك الكريم ، ارزقنا طيبا واستعملنا صالحا ، توفنا مسلما والحقنا بعبادك الصالحين .

المصادر مصحوبة بالهوامش المذكورة في متن البحث :

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ، للإمام ابن القيم (ت ٧٥١هـ) تحقيق محمد الفقي ، دار المعرفة ، ط٢ ، ١٩٧٥م .: ١٢٣/١)
(٢) في ظلال القرآن ((تفسير السيد قطب)) ، ط٥ ، بيروت ، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٧م .: ٢١٧/١
(٣) إغاثة اللهفان : ١٣٨/٢ مدارج السالكين شرح المنازل السائرين للإمام ابن القيم بيروت ط١، ١٣٩٥هـ : ٢٣/١
(٤) مدارج السالكين ٢٣١/١، الإبهاج في شرح المنهاج على منهاج الوصول إلى علم الأصول ، للبيضاوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،ط١، ١٤٠٤هـ .: ٢٢٨، الإرشاد إلى قواطع الأدلة في الأصول الاعتقاد للجويني(ت ٤٧٨هـ) تحقيق د. محمد يوسف ، مطبعة السعادة ، بمصر ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م .: ٢٢٨.
(٥) مجمل اللغة لأبي الحسين البغوي (ت٣٩٥هـ) تحقيق زهير سلطان ، مؤسسة الرسالة ،ط١٩٨٦،١م: ٦١٧/٣ ،معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، دار الفكر ، ط١ ، ١٩٧٩م د/ عبد السلام هارون: ٦٩/٤ أساس البلاغة للعلامة أبي القاسم جار الله الزمخشري ، بتحقيق الأستاذ عبد الرحيم محمود ، دار المعرفة ، بيروت – لبنان : ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .: ٣٠٩، القاموس المحيط : ١٨/٤ ، النهاية للحافظ أبي النداء ابن كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ) مكتبة المعارف ، بيروت – لبنان ، ط٧، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٨م أرم .: ٢٧٨/٣-٢٨٢ . اللسان للإمام ابن منظور(ت – ٧١١هـ) الدار المصرية للتأليف والترجمة : ٤٥٨/١٢، الصحاح للعلامة زين الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادرالرازي (ت٦٦٦هـ) ترتيب وتحقيق محمود خاطر وحمزة فتح الله ، دار البصائر ، مؤسسة الرسالة : ١٤٠٥هـ - ١٩٨٩م : ١٧٦٩/٥، المفرادات في غريب القرآن : الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني أبي ، مكتبة الأنجلوا المصرية ، المطبعة الحديثة ١٩٧٠م .: ٤٤٦ ، البصائر النصرية في علم المنطق

لابن سهلان الساوي وبهامشة تعليقات الشيخ. محمد عبده ود. رفيق العجم الفكر- لبنان: ٨٥/٤ العقل لرشدي عليان دار الفكر بغداد ط١ ١٩٨٧م : ٧٣-٧٤ ،: ٥٥ مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة ، للشيخ. محمد علي الجوزو نسخة مصورة .: ٢٤-٤٤.

(٦) اصول الدين الإسلامي د. رشدي عليان، د.قحطان الدوري، بغداد مطابع التعليم العالي، ط١٩٨٠،١م :١٩٦ ،وراحة العقل للكرماني موقع الرواق :١٣٧

(٧) التعريفات للإمام علي بن محمد الجرجاني،دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، ط١٤٠٨،٣هـ.: ١٥١، الاستقامة لابن تيمية ، من مطبوعات جامعة محمد بن مسعود ، الرياضة السعودية ، ط ١٣٩٩هـ: ١٦١/٢، الإرشاد للجويني : ٣٦، أدب الدنيا والدين للإمام ابن الحسن الماوردي (ت٤٥٠هـ) شرح وتعليق محمد كريم ، ط٣، دار اقرأ ، بيروت ، ١٩٨٥م ..: ٦-١٥ ا الفروق في اللغة ، للإمام الصنهاجي ، مطبعة أحياء الكتب العربية ط١، مصر، ١٣٤٧هـ. : ٧٥، القاموس المحيط : ١٨/٤، البصائر : ٨٥/٤ المفردات : ٣٤١، إحياء علوم الدين لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ) ، دار القلم – بيروت – لبنان ، ط٣.: ٨٣/١، ٣/ ٤ روضة الطالبين وعمدة السالكين ، للغزالي ، دار الكتب العلمية ، ط١، ١٩٨٦م . : ٤١- ٤٢، مواهب الرحمن في تفسير القرآن : للعلامة : عبد الكريم المدرس (ت١٤٢٦هـ) ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ط٢، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م: ٣٨٩/٤/ الأساس في التفسير للعلامة سعيد حوى رحمه الله، دار السلام ، مصر ، ط١، ١٩٨٥م : ٣٩٨٣/٦ الأساس في السنة العقائد للعلامة سعيد حوى رحمه الله، دار السلام ، مصر ، ط١، ١٩٨٩: ٢٣/١، ربيع الأبرار للعلامة الزمخشري ، عن موقع الوراق . : ١٣٧/٣، عيون الأخبار لأبي محمد الدينوري (ت٢٧٦هـ) دار الكتب المصرية ، ط١، ١٩٨٥م . : ٢٧٩/١ بهجة المجالس وأنيس المجالس ، للقرطبي ، تحقيق د. محمد الخولي دار الكتب العلمية ، ط١ ١٩٨٠م : ٥٣٤/٣، اليواقيت والجواهر: في بيان عقائد ((الأكابر)) للعلامة الشعراني ، ملتزم الطبع والنشر ، عبد الحميد أحمد الحنفي ، شارع المشحد الحسيني ، مصر.: ٧١، شرح اللمع في الردّ على أهل الزيغ والبدع للإمام الأشعري (ت٣٣٠هـ) مطبعة مصر القاهرة : ١٥١/١ مسلم بشرح النووي: (ت ٦٧٦هـ) ، دار القلم ، بيروت ، لبنان ط١. : ٢٩/١١

(٨) رسالة التوحيد :٧٦، أصول الدين الإسلامي : ٢٠٣

(٩) منهج القرآن في اصطلاح النفوس رسالة ماجستير للأخ/ عبده الحريري رحمه الله ، كلية العلوم الإسلامية – بغداد ، ١٩٩٣م . : ٣٠١

(١٠) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ، لأبي العباس القسطلاني (ت٩٢٣هـ) المطبعة الأميرية . بولاق مصر المحميمة ط٧ ١٣٢٣هـ . :٢٨٣/١، صحيح مسلم بشرح النووي : ١٢١٩/٣.

(١١) ينظر معالم الطريق في عمل الروح الإسلامي للدكتور العلامة عبد الله مصطفى،ط:عمان ، الأردن، ١٤١٤هـ.: ٢٨٤.

(١٢) المنقذ من الضلال :١٠،وتهافت الفلاسفة:٤٥،وتهافت التهافت:٤٠

(١٣) أصول الإسماعيلية:٨٢،وراحة العقل:١٣٧،والملل والنحل:٢٩/٢والإحكام في أصول الأحكام:١٤/١

(١٤) ينظر القسطاس المستقيم للإمام الغزالي ١٤،والأحكام لابن حزم :١٧/١

(١٥) العقل وسطوته ج. راين ، ترجمة محمد الحلوجي ، مصر ، مطبعة السعادة:٢٦،والعقل والوجود يوسف كرم ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٤م.:٨

(١٦) إرشاد الساري : ٢٨٣/١ ، صحيح مسلم بشرح النووي : ١٢١٩/٣.

(١٧) المصدر نفسه : ٤٢٤/٨- ٤٢٥ .

(١٨) شرح المقاصد النووية للعلامة الشيخ محمد الحجار ، دار الفكر ، بيروت ١٤٢٥هـ:١٦٥،وحقائق عن التصوف للشيخ عبد القادر عيسى دار الفكر بيروت ط٣ ١٩٩٠ :١٥٠ ،وطبقات الصوفية:٢١٠،والفتح الرباني للشيخ عبد القادر الجيلاني :٢٩

(١٩) ينظر سورة البقرة : الآيات ٧٣، ٢٤٢، سورة آل عمران الآية : ١١٨ سورة المؤمنون الآية : ٨٠ سورة الشعراء الآية ٢٨ ، سورة النحل : الآية ١٢ وينظر حياة البرزخ في الفكر الإسلامي : ٢٥.

(٢٠) سورة الرعد : الآية : ٢٤ وينظر موسوعة الإعجاز الذهبية : ٤٩٩ .

(٢١) سعادة الأنام بشرح عقيدة العوام للدكتور : مراد الجنابي – مركز عبادي صنعاء ط١ ٢٠٠٦م : ٢٨

(٢٢) شرح المقاصد النووية : ٣٨.

(٢٣) سورة الروم : الآية ٢٤ وينظر موسوعة الإعجاز الذهبية : ٥٠٥ .

(٢٤) ينظر أصول الدين الإسلامي : ٩٠ وما بعدها .

(٢٥) سورة غافر الآية ٦٧. وينظر ، حياة البرزخ : ٤٥ وأصول الدين الإسلامي :٧٠

(٢٦) سورة الحج الآية : ١٠٤.

(٢٧) سورة الأنبياء : الآيتان ٦٦- ٦٧ وينظر ثقافة الداعية للقرضاوي – دار الرسالة ط١ ٢٠٠٠م : ٣٥ .
(٢٨) سورة الشعراء = ٢٣-٢٨ وينظر ثقافة الداعية للشيخ يوسف القرضاوي : ٤٠ والعقل وفضله : ٢٠ .
(٢٩) مفهوم العقل والقلب : ٧٧ وينظر درء تعارض العقل والنقل لإبن تيمية : ٦٢ .
(٣٠) مفهوم العقل والقلب : ٧٨ وينظر مفهوم العقل والعلم والعالم من رب العالمين : ٤٦
(٣١) سورة البقرة : الأية ١٧١، وينظر مقام العقل عند العرب قدوري طوقان ، دار المعارف للطباعة والنشر ، مصر. : ٢٧.
(٣٢) سورة الأنفال : الآية ٢٢ .
(٣٣) سورة الفرقان ، الآية : ٤٤ وينظر العقل وفضله : ٣٠ .
(٣٤) مشكاة الأنوار لابن حامد الغزالي ، عن موقع الوراق . : ٨ وينظر درء تعارض العقل والنقل : ٣٦ .
(٣٦) مشكاة الأنوار : ٨-١٣ وينظر مقام العقل عند العرب : ٧٠.
(٣٧) تفسير الرازي ٢٣ / ٢٢٦ – ٢٢٩ وينظر أصول الدين الإسلامي : ٤٥
(٣٨) سورة الأنفال : الآية ٦٧
(٣٩) سورة الأعلى : الآية ١٧
(٤٠) كتاب الجلاله لابن عربي : ٣-٤ وينظر ١٠-١٢
(٤١) سورة يوسف : الآية ٢ وينظر العقل وفضله : ٥٣ .
(٤٢) سورة الزخرف : الآية ٤٤ وينظر مقام العقل عند العرب : ٧٧ .
(٤٣) سورة الأنبياء : الأية ١٠
(٤٤) سورة البقرة : الآية ٢٣.
(٤٥) سورة يونس : الآية : ١٥
(٤٦) سورة يوسف : الآية (١٠٩) وينظر أصول الدين الإسلامي : ٢١٥ وما بعدها .
(٤٧) سورة العنكبوت : ٤٣ وينظر ثقافة الداعية : ٥٦ .
(٤٨) سورة البقرة : (٤٤)
(٤٩) سورة البقرة : الآية : ٤٤.
(٥٠) سورة الأنعام : الآية ٣٢.
(٥١) الإقناع للشربيني : ٥١٠/٢.
(٥٢) سورة النور : الآية ٦١
(٥٣) سورة الأنعام الآية ١٥١.
(٥٤)أصول الفقه لخلاف: ٧٩
(٥٥) بدائع السلك ٤٠٤/١
(٥٦) معراج السالكين (١٢٨)
(٥٧) بدائع السلك ١/ ٤٠٤
(٥٨) عيون الأخبار ١/ ٢٧٩، بهجة المجالس ٥٣٦/٢.
(٥٩) بدائع السلك ٤٠٤/١
(٦٠) بهجة المجالس ٢/ ٥٤١
(٦١) سيرة ابن هشام : ٢٣٤/٢، وأفصح الكلام بسيرة خير الأنام للصلابي : ٦٧٣/١. ومرويات غزوة بدر : ١٥٥.
(٦٢) سيرة إبن هشام : ٣٢٢/٢.
(٣٥) (٦٣) أفصح الكلام في سيرة خير الأنام للدكتور الصلابي ، مكتب الصحابة ط١ ١٤٢٢هـ : ٢١٨/٢.
(٦٤) رواه البخاري : ١١٦٢. ، ورياض الصالحين للنووي : ٢٨٤.
(٦٥) عيون الأخبار ٢٨١/١ ربيع الأبرار ١٣٩/٣.
(٦٦) ربيع الأبرار ١٤٠/٣ .
(٣٦) (٦٧) ربيع الأبرار ١٤٩/٣ وشرح نهج البلاغة لعبد الحميد بن الحداد ، دار أحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ط٢، ١٩٦٧م ٤١/٣
(٦٨) ينظر : بهجة المجالس ٥٣٢/٢ وما بعدها ، ربيع الأبرار ١٤٣/٣ وما بعدها
(٦٩) سورة آل عمران : الآية ١٥٩
(٧٠) ربيع الأبرار / ١٤٣/٣
(٧١) ربيع الأبرار ١٥١/٣.
(٧٢) المصدر نفسه ١٥١/٣/ بهجة المجالس ٤٥٥/٢.
(٧٣) عيون الأخبار ٣٢٩/١. وينظر الوسطية والاعتدال خير الدنيا وسعادة المآل خير الدنيا وسعادة الأنام،د.مراد عبد الله الجنابي مركز عبادي للطباعة،ط٢ صنعاء : ٥٥ وما بعدها .
(٧٤) ينظر العقل وفضله : ٨٨ .

(٧٥) ينظر درء تعارض العقل والنقل لابن تيميه ، تحقيق محمد رشاد جامعة محمد بن سعود ، الرياض ، السعودية ، ط١، ١٣٩٩هـ . : ٥٧ .
(٧٦) عيون الأخبار ٢٨٠/١ ونسبه إلى إياس بن معاوية .
(٧٧) عيون الأخبار ٢٨٠/١ بهجة المجالس ٥٣٨/٢
(٧٨) عيون الأخبار ٣٢٩/١ ، أدب الدنيا والدين ١٧
(٧٩) أدب الدنيا والدين : ١٧
(٨٠) وينظر مقام العقل والنقل : ٣٧ .
(٨١) سورة البقرة : الآية ٦٧
(٨٢) سورة الحجرات الآية ٦
(٨٣) سورة الأعراف : الآية ١٣٨
(٨٤) سورة النمل : الآية ٥٥.
(٨٥) سورة الأحقاف الآية : ٢٢ ، ٢٣
(٨٦) سورة الزمر :الآية ٦٤
(٨٧) روضة العقلاء : ٤ ، دور العقل في التربية : ٨، البيان والتبين : ٢٤٩/١
(٨٨) سورة الأحزاب :الآية ٢١
(٨٩) سورة النحل : الآية ٤٣
(٩٠) سورة البقرة : الآية ١٧٠
(٩١) تأويلات أهل السنة : ٣١٩ وينظر أصول الدين الإسلامي : ٢١٨ وما بعدها
(٩٢) الكشاف : ٢١٣/١ وينظر الوسطية والاعتدال : ٥٠ وما بعدها .
(٩٣) سورة الزخرف :الآية ٢٤/٢٢
(٩٤) سورة الأعراف الآية ٢٨
(٩٥) سورة الملك الآية : ١٠
(٩٦) مختصر تفسير ابن كثير ٥٢٨/٣
(٩٧) الكشاف للزمخشري (ت٥٣٨هـ) ومعه حاشية السيد الشريف الجرجاني عليه ، دار الفكر ، أهمل ذكر السنة والطبعة . ٥٧٩/٢٧٨/٤ البيضاوي ((أنوار التنزيل وأسرار التأويل)) دار الفكر ، بيروت – لبنان ٥١٠/٢
(٩٨) التعريفات : ٢٢٧ وينظر الوسطية والاعتدال : ٥٢ وما بعدها .
(٩٩) ينظر العقل وفضله : ٥٤ .
(١٠٠) سورة الأنعام : الآية ٣٢
(١٠١) الدر المنثور في التفسير المأثور ، للسيوطي، دار الفكر بيروت ، ط١، سنة ١٩٨٣م ٢٦٣/٣ .
(١٠٢) المدثر الآية ١٨-٢٥